اللفظ والمعنى عند ابن جني وأثره في البحث البلاغي

الباحث /سلطان دخيل الله العوفي

قسم اللغة العربية – جامعة طيبة – المملكة العربية السعودية

بين يدي القارئ :

العلاقة بين اللفظ والمعنى علاقة وطيدة، فهما كجناحي طائر لا ينهض إلا بهما، أو كما قال ابن رشيق القيرواني: " اللفظ جسم، وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته"[1].

وهذه القضية ولدت في رحاب الفلسفة والدين؛ بسبب ذلك الجدل الطويل الذي كان يدور حول مجموعة من القضايا التي تدور حول القرآن بين طوائف المسلمين، كقضية المحكم والمتشابه، وجواز تفسير المتشابه أو عدمه، وقضية قدم القرآن أو حدوثه، وكون مخلوق وغير مخلوق وحول قراءة القرآن بغير العربية أو عدم جوازها إلى غير ذلك من المسائل التي اشتد الخلاف حولها واتصل الجدل بها[2].

واللغويون كانت لهم إسهامات واضحة وجليلة في هذه القضية، وكانت على شكل إشارات ولطائف في كتبهم، فسيبويه أشار إليها في كتابه[3]، وابن جني تحمس لها، فجاءت جهوده فيها متناثرة في كتبه لاسيما الخصائص، ثم أتى البلاغيون واستثمروا فكرة التناسب بين اللفظ والمعنى من عند اللغويين، فبحثوا عن أوجه المناسبة بينهما من جانب جمالي في اللغة.

هذا وقد شغلت ثنائية اللفظ والمعنى وطبيعة الصلة بينهما اللغويين والأدباء قديما وحديثا، وقد اشتدت المعارك النقدية والأدبية لهذه الثنائية بين النقاد والأدباء، حول أيهما أشرف اللفظ أم المعنى؟ فمنهم من أعلى من شأن اللفظ على حساب المعنى، ومنهم من أعلى المعنى ، ومنهم من وضع معايير للجودة بين اللفظ والمعنى، وكل هذا أدى لحركة واسعة أثْرت ساحتنا

---

[1]- العمدة في محاسن الشعر وآدابه:ج1،ص124.

[2]- التراث النقدي والبلاغي عند المعتزلة، وليد قصاب، ص373.

[3]- جاء في الكتاب لسيبويه: " ومن المصادر التي جاءت على مثال واحدٍ حين تقاربت المعاني قولك: النزوان، والنقزان؛ وإنما هذه الأشياء في زعزعة البدن واهتزازه في ارتفاع". الكتاب:ج2،ص154.

الأدبية والنقدية في تراثنا العتيق. أيضاً لأهمية هذه الثنائية، نجد أن القضية تلونت وتشكلت بمذاهب أصحاب اللسانيات الحديثة، كالأسلوبية والبنيوية والتداولية والسيميائية.

ولنسبة الفضل لأهله، واعترافا بجهودهم وسبق معرفتهم، واعتزازا بتراثنا الخالد، سأكتب في هذه الورقة عن جهود ابن جني في قضية اللفظ والمعنى، وذلك لكونه أبرز من اهتم بهذه الثنائية من اللغويين، كما أنها ستحاول الإجابة على ميلاد الدرس البلاغي من فكر ابن جني اللغوي، والكشف عن الجذور البلاغية من التفكير اللغوي عنده من خلال قضية اللفظ والمعنى.

ثنائية اللفظ والمعنى عند ابن جني

يُعتبر أبو الفتح عثمان بن جني من أبرز من اهتم لقضية اللفظ والمعنى من اللغويين، ويقصد ابن جني باللفظ ذلك الصوت المجرد من الحقيقة والفعل، وأن هذا الصوت صناعة لفظية تحدد للمعنى المراد.

يقول ابن جني: " ألا تراك إذا قلت: ضرب سعيد جعفرًا فإن " ضرب" لم تعمل في الحقيقة شيئًا وهل تحصل من قولك ضرب إلا على اللفظ بالضاد والراء والباء على صورة فعل فهذا هو الصوت والصوت مما لا يجوز أن يكون منسوبًا إليه الفعل وإنما قال النحويون: عامل لفظي وعامل معنوي ليروك أن بعض العمل يأتي مسببًا عن لفظ يصحبه كمررت بزيد وليت عمرًا قائم. "[1]

كما رأى ابن جني الصنعة في اللفظ، فقد أضاف الصناعة للفظ في أكثر من موضع في كتابه الخصائص، وهذا ما أكده بقوله:"ألا تراك إذا سئلت عن زيد من قولنا: قام زيد سميته فاعلا وإن سئلت عن زيد من قولنا: زيد قام سميته مبتدأ لا فاعلا وإن كان فاعلا في المعنى. وذلك أنك سلكت طريق صنعة اللفظ فاختلفت السمة فأما المعنى فواحد فقد ترى إلى سعة طريق اللفظ وضيق طريق المعنى"[2]

[1]- ينظر: الخصائص:ج1،ص110.
[2]- المصدر السابق: ج1،ص243.

ولأهمية ثنائية اللفظ والمعنى عنده نراه في كتابه الخصائص نراه يعقد بابا في كتابه الخصائص بعنوان: باب في الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني، وابن جني وإن كان يرى أن الألفاظ خدم للمعاني والمخدوم أشرف من الخادم، وقد أكد هذا الكلام في أكثر من موضع في كتابه الخصائص وهذا دليل على شرف المعنى عنده، فيقول: " فالمعنى إذًا هو المكرم المخدوم, واللفظ هو المبتذل الخادم"[1]، ويقول أيضا": "الألفاظ خدم للمعاني والمخدوم –لا شك– أشرف من الخادم"[2].

ولكن المتأمل في كتاب الخصائص يلحظ عناية واجتهاد ابن جني في الألفاظ، فهو يعقد بابا في إصلاح اللفظ ويورد بعض الأمثلة والشواهد في هذا الباب التي تؤكد العناية باللفظ والاهتمام به عنده، فقد قدم لهذا الباب بقوله" اعلم أنه لما كانت الألفاظ للمعاني أزمة وعليها أدلة وإليها موصلة، وعلى المراد منها محصلة عنيت العرب بها فأولتها صدرًا صالحًا من تثقيفها وإصلاحها"[3].

وهذه العناية الفائقة بالألفاظ التي نلحظها عند ابن جني، ماهي إلا من اهتمامه البالغ بالمعنى، فهو يهتم باللفظ ولكن ليس على حساب المعنى، فاهتمامه باللفظ نابع من اهتمامه بالمعنى، لأن الألفاظ هي التي توضح المعنى وتبين مراد القائل وتظهره وتجلي حقيقته.

فالألفاظ عنوان المعاني، وكالوعاء لها وإصلاح الوعاء وتحسينه قصد به الاحتياط لما أُودع به، والحفاظ عليه حتى لا يطرأ عليه ما يكدره ويذهب الفائدة منه، فالعناية عند ابن جني بالألفاظ ضرورية للعناية بالمعاني، وشرف المعنى ورفعته وفخامته لا يظهر إلا برفعة اللفظ، فالعناية بالألفاظ عنده لازمة[4]

يقول ابن جني في باب الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني: "العرب كما تعنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة

[1]- الخصائص: ج1،ص151.
[2]- المصدر السابق:ج1،ص222.
[3]- المصدر السابق: ج1،ص313.
[4]- ينظر: اثر النحاة في البحث البلاغي:ص290.

وبالخطب تارة أخرى، وبالأسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها، فإن المعاني أقوى عندها وأكرم عليها وأفخم قدرا في نفوسها. فأول ذلك عنايتها بألفاظها، فإنها لما كانت عنوان معانيها وطريقها إلى إظهار أغراضها ومراميها، أصلحوها ورتبوها وبالغوا في تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك أوقع لهما في السمع وأذهب بها في الدلالة على القصد، ألا ترى أن المثل إذا كان مسجوعا لذَّ سامعه فحفظه، فإذا حفظه كان جديرا باستعماله، وكذلك الشعر النفس إليه أحفظ وإليه أسرع"[1]

ولا يكتفي ابن جني بالشق النظري في قضية اللفظ والمعنى بل نراه يعتني بتطبيقها في كتابه ، وذلك من خلال كلامه عن الأبيات الشهيرة :

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح

وشدت على حدب المهارى رحالنا ... ولا ينظر الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الحديث بيننا ... وسالت بأعناق المطي الأباطح

وقبل الحديث عن رأي ابن جني يجدر بنا الاطلاع على رأي الأدباء والنقاد في هذه الأبيات، فابن قتيبة وابن طباطبا و أبوهلال العسكري وتبعهم الباقلاني، حيث جاء رأيهم متقارب حول هذه الأبيات، ذلك بأنها من الأبيات التي حسن لفظها ووهن معناها وقلت فائدتها، وقد تكلم ابن جني في الأبيات متخذا منها على ما رآه من أن تميز اللفظ هو السبيل إلى تميز المعنى وهو الدليل عليه[2]. ومن خلال هذه الآراء يتبين لنا استقلالية ابن جني في الرأي، فهو لم يتأثر بسابقيه ابن قتيبة وابن طباطبا ولم يتأثر بمن عاصروه كأبي هلال العسكري والباقلاني.

فقد عرض أولا دعوى معارضيه بقوله:

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطي الأباطح

[1]- ينظر: الخصائص: ج1،ص216.

[2]- ينظر الخصائص: ج1،ص11- 12، تحقيق: محمد النجار.

فقد ترى إلى علو هذا اللفظ ومائه, وصقاله وتلامح أنحائه, ومعناه مع هذا ما تحسه وتراه: إنما هو: لما فرغنا من الحج ركبنا الطريق راجعين, وتحدثنا على ظهور الإبل. ولهذا نظائر كثيرة شريفة الألفاظ رفيعتها مشروفة المعاني خفيضتها".

ثم يأتي الرد من ابن جني بقوله: "هذا الموضع قد سبق إلى التعلق به من لم ينعم النظر فيه, ولا رأى ما أراه القوم منه, وإنما ذلك لجفاء طبع الناظر, وخفاء غرض الناطق. وذلك أن في قوله " كل حاجة" "ما" يفيد منه أهل النسيب والرقة، وذوو الأهواء والمقة ما لا يفيده غيرهم, ولا يشاركهم فيه من ليس منهم ألا ترى أن من حوائج "منى" أشياء كثيرة غير ما الظاهر عليه والمعتاد فيه سواها؛ لأن منها التلاقي، ومنها التشاكي، ومنها التخلي، إلى غير ذلك مما هو تال له ومعقود الكون به. وكأنه صانع عن هذا الموضع الذي أومأ إليه وعقد غرضه عليه بقوله في آخر البيت:ومسح بالأركان من هو ماسحأي إنما كانت حوائجنا التي قضيناها, وآرابنا التي أنضيناها، من هذا النحو الذي هو مسح الأركان وما هو لاحق به وجار في القربة من الله مجراه أي لم يتعد هذا القدر المذكور إلى ما يحتمله أول البيت من التعريض الجاري مجرى التصريح.

وأما البيت الثاني فإن فيه:أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا

وفي هذا ما أذكره لتراه فتعجب ممن عجب منه ووضع من معناه. وذلك أنه لو قال: أخذنا في أحاديثنا ونحو ذلك لكان فيه معنى يكبره أهل النسيب وتعنو له ميعة الماضي الصليب. وذلك أنهم قد شاع عنهم واتسع في محاوراتهم علو قدر الحديث بين الأليفين والفكاهة بجمع شمل المتواصلين"[1]

وقد وقف عبد القاهر الجرجاني عند هذه الأبيات متأثرا من كلام ابن جني السابق الذي يقول فيه: " ألا ترى أنه يريد بأطرافها ما يتعاطاه المحبون ويتفاوضهذوو الصبابة المتيمون من التعريض والتلويح والإيماء دون التصريح".

[1]- الخصائص:ج1،ص219-220.

ويقول عبد القاهر الجرجاني: "ثم دلّ بلفظة الأطراف على الصّفة التي يختصّ بها الرِّفاق في السَّفر،من التصرف في فنون القولِ وشجون الحديث، أو ما هو عادة المتظرّفين، من الإشارة والتلويح والرَّمْز والإيماء"[1]

وليست هذه المرة الوحيدة التي استثمر فيها عبدالقاهر الجرجاني من فكر ابن جني اللغوي، فأثره واضحا وجليا في فكر عبد القاهر الجرجاني، يظهر ذلك في قول عبدالقاهر الجرجاني في الأسرار: " أن المعاني لا تَدِين في كل موضع لما يَجْذبها التجنيس إليه، إذ الألفاظ خَدَمُ المعاني والمُصرَّفةُ في حكمها، وكانت المعاني هي المالكة سياستهَا، المستحقَّةَ طاعتها"[2]

وجهود ابن جني في طبيعة الصلة بين اللفظ والمعنى تدل على عبقريته وعقليته الفذة، ذلك بأن له قدم السبق المعرفي في سياق الحال، وليس للعالم اللغوي فيرث الذييرى أن هناك عناصر أساسية لسياق حال الحدث اللغوي على المستوى الاجتماعي وهي: الحدث الكلامي والحدث غير الكلامي والأشياء الوثيقة الصلة بالموقف وأثر ذلك الحدث.[3]

ومن أجل التأكيد على سبق ابن جني لهذه النظرية ،فقد وقف على قول الشاعر :

تقول . وصكت وجهها . بيمينها ... أبعلي هذا بالرحى المتقاعس؟!

"فلو قال حاكيًا عنها: أبعلي هذا بالرحى المتقاعس –من غير أن يذكر صك الوجه– لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرة لكنه لما حكى الحال فقال: "وصكت وجهها " علم بذلك قوة إنكارها وتعاظم الصورة لها. هذا مع أنك سامع لحكاية الحال غير مشاهد لها ولو شاهدتها لكنت بها أعرف ولعظم الحال في نفس تلك المرأة أبين"[4]

وما استشهد به ابن جني يتضمن أمرين وهما ما عبر عنهما فيرثبالحدث الكلامي بقولها: أبعلي هذا بالرحى المتقاعس؟ والحدث غير الكلامي ويمثله قوله: وصكت وجهها بيمينها[5].

---

[1]- أسرار البلاغة: ص23.
[2]- أسرار البلاغة: ج1،ص8.
[3]- الدلالة اللغوية عند العرب: 160
[4]- الخصائص: ج1،ص246.
[5]- ينظر: الدلالة اللغوية عند العرب،ص161.

وتتأكد أصالة ابن جني في بحثه للصلة بين اللفظ والمعنى عندما تناول المسألة من منظور لغوي كالصوت والتصريف ودلالة التركيب

فعلاقة الصوت باللفظ عند ابن جني علاقة انسجام وترابط وتلاؤم يدل فيها الصوت على المعنى ويتوافق معه، فطول الصوت وقصره مرتبطان بقوة المعنى وضعفه[1]، يقول:" فإن كثيرًا من هذه اللغة وجدته مضاهيًا بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبر بها عنها؛ ألا تراهم قالوا قضم في اليابس وخضم في الرطب؛ ذلك لقوة القاف وضعف الخاء فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى, والصوت الأضعف للفعل الأضعف. وكذلك قالوا: صر الجندب, فكرروا الراء لما هناك من استطالة صوته, وقالوا: صرصر البازي فقطعوه لما هناك من تقطيع صوته وسموا الغراب غاق حكاية لصوته والبط بطًا حكاية لأصواتها"[2].

وقد وقف ابن جني على ظاهرة الربط بين أصوات المد في الكلمة وما تحمله من معاني دلالية ، وأن المد يقوم مقام الصفة، وقد نقل كلاما لسيبويه ثم علق عليه، يقول سيبويه: "وتقول سير عليه ليلٌ طويلٌ وسير عليه نهارٌ طويل"[3] يريدون: ليلٌ طويلٌ، وهذا إنما يفهم عنهم بتطويل الياء، فقامت المدة مقام الصفة، كما أشار لدور المد في القافية وما يكون من إشباع مدات التأسيس والردف والوصل في القافية وربطها بالمعنى للسياق[4]

كما أورد ابن جني في كتابه بما يعرف اليوم النبر وأثره في المعنى يقول : "وأنت تحسّ هذا من نفسك إذا تأمَّلته, وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه, فتقول: كان والله رجلًا, فنزيد في قوة اللفظ ب"الله" هذه الكلمة، وتتمكَّن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليها", أي: رجلًا فاضلًا أو شجاعًا أو كريمًا أو نحو ذلك"[5]، كما أشار ابن جني إلى مظهر آخر لعلاقة الصوت مع المعنى، وهو التنغيموذلك في باب نقض الأوضاع إذا ضامها طارئ

[1]ينظر: البلاغة والأصول:85.
[2]- الخصائص: ج1،ص66.
[3]- الكتاب:ج1،ص220.
[4]- ينظر: المحتسب: ج2،ص209.
[5]- ينظر:الخصائص: ج2،ص273

عليها يقول:" من ذلك لفظ الاستفهام؛ إذ ضامه معنى التعجب استحال خبرًا. وذلك كقولك: مررت برجل أي رجل. فأنت الآن مخبر بتناهي الرجل في الفضل، ولست مستفهمًا"[1]

وابن جني يؤكد في كتابه بأن الصوت تابع للمعنى ومرتبط به، يقول: "الأصوات تابعة للمعاني –فمتى قويت قويت، ومتى ضعفت ضعفت. ويكفيك من ذلك قولهم: قَطَعَ وقَطَّعَ، وكَسَرَ وكَسَّرَ. زادوا في الصوت لزيادة المعنى، واقتصدوا فيه لاقتصادهم فيه"[2]

وعلى الجملة لم يقتصر ابن جني في مناقشة علاقة الصوت بالمعنى في السياق الطبيعي، بل تناولها أيضا في سياق بلاغي، أي ما ينطوي عليه الصوت من معان في مقامات تبليغية معينة، ولعل أبرز مفهوم يكشف عن المعنى البلاغي للصوت اللغوي هو ما اصطلح عليه ابن جني بقوة اللفظ لقوة المعنى، وقد تنبه ابن جني إلى الوظيفة البلاغية للصوت اللغوي[3]، ومن ذلك قولهم: النضح للماء نحوه والنضخ أقوى من النضح, قال الله سبحانه: {فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ} فجعلوا الحاء –لرقَّتها– للماء الضعيف, والخاء –لغلظها– لما هو أقوى منه"[4]. ومن هنا يتبين لنا بما لايدعو مجالا للشك بأن ابن جني يحمل الصوت اللغوي طاقة تشكيل المعنى البلاغي.[5]

أما الدلالة الصرفية عند ابن جني، فهو يسميها الدلالة الصناعية، وتستمد قوتها من الدلالة اللفظية حيث أنها القالب الذي نصب فيه الألفاظ وتبنى على صورته ومنواله[6]، يقول: "وإنما كانت الدلالة الصناعية أقوى من المعنوية من قبل أنها وإن لم تكن لفظًا فإنها صورة يحملها اللفظ، ويخرج عليها ويستقر على المثال المعتزم بها. فلما كانت كذلك لحقت بحكمه وجرت مجرى اللفظ المنطوق به فدخلا بذلك في باب المعلوم بالمشاهدة"[7]

---

[1]- ينظر الخصائص:ج3،ص272.
[2]- ينظر: المحتسب: ج2،ص209.
[3]- ينظر: البلاغة والأصول: ص84.
[4]- الخصائص: ج2،ص160، والآية رقم 66 من سورة الرحمن.
[5]- البلاغة والأصول: 84.
[6]- ينظر: الدلالة اللغوية عند العرب: ص184.
[7]- الخصائص: ج3،ص100.

ومن القيم الصرفية التي أدركها ابن جني بما يعرف في علم اللغة أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فيلاحظ ابن جني في كثير من الصيغ الصرفية فروقا في الدلالة بسبب زيادة الأحرف في أول الصيغة أو في وسطها بتضعيفأحرفها الأصلية ، ففي الوزن الصرفي فعل إذا زدنا الهمزة في أوله صار أفعل وبهذا ستختلف دلالته،يقول: "فأفعل للنقل وجعل الفاعل مفعولا؛ نحو دخل وأدخلته, وخرج, وأخرجته، ويكون أيضًا للبلوغ نحو أحصد الزرع, وأركب المهر, وأقطف الزرع, ولغير ذلك من المعاني، وأما فاعل فلكونه من اثنين فصاعدًا نحو ضارب زيد عمرًا وشاتم جعفر بشرًا وأما فعّل فللتكثير نحو غلّق الأبواب وقطّع الحبال وكسّر الجرار"[1].

ويؤكد ابن جني أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى بالأمثلة التطبيقية، ذلك بأن كثرة الحروف في الكلمة لها دلالة بليغة غير الكلمة من دون زيادة تلك الحروف، فلها دور في ملائمة الكلام للمعنى المراد الذي يدل على الكثرة والمبالغة فيه، مثل: احدودب أقوى من حدِب، واعشوشب أقوى من أعشب، وفي قوله تعالى:(أخذ عزيز مقتدر) فمقتدر أبلغ من قادر، ولهذا جاء قوله تعالى:(لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت) فالتعبير عن لفظ الحسنة بكسب؛ لاحتقار الحسنة إلى ثوابها، وجاء اكتسبت في السيئة تنفيرا عنها وتهويلا وتشنيعا بارتكابها"[2].

ويقول أيضا في معرض الدلالة الصرفية . ولكن هنا ليس بزيادة الأحرف أو تضعيفها. إنما في الفرق الدلالي في الحركات لكلمة واحدة، وذلك عندما وجه قراءة حسان بن عبدالرحمن " "وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قِوَامًا"، وأصل القراءة قَواما بالفتح، قال أبو الفتح: القَوَامُ، بفتح القاف: الاعتدال في الأمر، ومنه قولهم: جارية حسنة القوام: إذا كانت معتدلة الطول والخلق. وأما

[1]- الخصائص: ج1،ص224.
[2]- ينظر: المحتسب،ج2،ص134.

"القِوَام" بكسر القاف فإنه ملاك الأمر وعصامه، يقال: مِلَاك أمرك وقِوَامه أن تتقي الله في سرك وعلانيتك، فكذلك قوله: "كَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قِوَامًا"، أي: مِلاكا للأمر ونظاما وعصاما[1].

أما الدلالة النحوية فقد اهتم بها من خلال التراكيب والعلاقات النحوية بين الكلمات التي تتخذ كل منها موقعا معينا في الجملة حسب قوانين اللغة، حيث أن كل كلمة في التركيب لابد أن يكون لها وظيفة نحوية من خلال موقعها[2]، يقول ابن جني: الإعراب إنما جيء به دالا على اختلاف المعاني[3].

وهكذا يمضي ابن جني في النظر للعلاقات النحوية من خلال المعنى الذي تحدثه في السياق، فالكلمة الواحدة يتغير إعرابها بتغير موقعها في السياق، يقول ابن جني:" فالتصريف إنما هو لمعرفة أنفس الكلم الثابتة، والنحو إنما هو لمعرفة أحواله المتنقلة، ألا ترى أنك إذا قلت: "قام بكر، ورأيت بكرا، ومررت ببكر" فإنك إنما خالفت بين حركات حروفالإعراب لاختلاف العامل، ولم تعرض لباقي الكلمة, وإذا كان ذلك كذلك فقد كان من الواجب على من أراد معرفة النحو أن يبدأ بمعرفة التصريف؛ لأن معرفة ذات الشيء الثابتة ينبغي أن يكون أصلا لمعرفة حاله المتنقلة"[4].

ومن المسائل النحوية التي تجلى فيها فكر ابن جني باب اسماه نقض المراتب إذا عرض هناك عارض، وأراد بالمرتبة موقع الكلمة في الجملة الذي تستحقه، كالفاعل الذي رتبته التقديم على المفعول، ثم يعرض لهذه الرتبة عارض فينقضها ويصير من الواجب في بناء الجملة تأخير هذا الفاعل، وذلك إن كان فيه ضمير يعود على المفعول، لأن الضمير لايعود على متأخر لفظا ورتبه، مثل قولنا: ضرب زيدا غلامُه ، ولا يقال: ضرب غلامه زيدا، كما قال سبحانه وتعالى (وإذا ابتلى إبراهيم ربه) ، وقد ورد في شعر العرب قول الشاعر:

جزى ربه عني عدي بن حاتم جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

[1]- ينظر: الخصائص،ج2،ص125.
[2]- ينظر: الدلالة اللغوية عند العرب،ص194.
[3]- ينظر: الخصائص،ج1،ص176.
[4]- ينظر: المنصف،ج1،ص4.

وقد خرجوا البيت بأن الضمير عائد على المصدر المدلول عليه بالفعل، أي جزى رب الجزاء، وهذا ما استقر عليه علماء العربية، بأن الضمير لايعود على متأخر في اللفظ والرتبة. ولكن ابن جني راجع هذا الإجماع ورأى أن تقديم المفعول على الفاعل في القرآن وفصيح الكلام متعالم غير مستنكر، حيث أن تقديم المفعول لما شاع وكثر كان الموضع له وهو أصل، حتى إذا أُخِّر فموضعه التقديم، فاعتبر ابن جني كثرة تقديم المفعول على الفاعل سببا في جريان هذا التقديم في نفس القائل وافترض أن المتكلم بهذا الأسلوب الذي أجمعوا على خروجه عن القاعدة فقد نطق بالجملة والمفعول فيها مقدم، ثم جرى لسانه فيها بتأخيره، وبناء على هذا الافتراض النفسي أو التوهم أجاز ابن جني ما جرى به لسانه.[1]، يقول ابن جني : "كأنه قال: جزى عديَّ بن حاتم ربُّه ثم قدم الفاعل"[2]

وتحدث ابن جني عن التقديم والتأخير قبل البلاغيين، وأن تقديم بعض المعمولات إنما كان من أجل العناية بالمقدم والاهتمام به، فأتى عبد القاهر الجرجاني بعده ونقل فكرته في دلائل الإعجاز في مسألة التقديم والتأخير، يقول ابن جني : "ينبغي أن يُعلم ما أذكره هنا؛ وذلك أن أصل وضع المفعول أن يكون فضلة وبعد الفاعل؛ كضرب زيد عمرًا، فإذا عناهم ذكر المفعول قدَّموه على الفاعل، فقالوا: ضرب عمرًا زيد، فإن ازدادت عنايتهم به قدموه على الفعل الناصبة، فقالوا: عمرًا ضرب زيد، فإن تظاهرت العناية به عقدوه على أنه رَبُّ الجملة"[3].

ومن اهتمام ابن جني بالدلالة النحوية وأثرها في المعنى، فقد وقف على الفرق بين الخطاب بالجملة الإسمية والخطاب بالجملة الفعلية، يقول ابن جني : " وهذا كقولك: إذا زرتني فأنا ممن يحسن إليك، أي: فحرى بي أن أحسن إليك. ولو جاء بالفعل مصارحا به فقال: إذا

[1]- ينظر: مراجعات في أصول الدرس البلاغي، ص103- 104.
[2]- الخصائص: ج1،ص298.
[3]- المحتسب: ج1،ص65.

زرتني أحسنت إليك لم يكن في لفظه ذكر عادته التي يستعملها من الإحسان إلى زائره، وجاز أيضا أن يظن به عجز عنه، أو وني وفتور دونه"[1]

ويمثل الحمل على المعنى عند ابن جني أداة لتقبل الصيغ اللغوية الموسومة بالشذوذ ومجافاة العرف، ذلك بأنها أداة تعليلية ووسيلة لتوسيع ظواهر اللغة غير المطردة مع القواعد المتعارف عليها، ولاشك بأن في التراكيب المحمولة على المعنى جورا على قواعد الصحة اللغوية من حيث بناؤها الظاهري، غير أن التأويل قادر على ردها إلى النظام اللغوي، بل يفلح في إظهار ما تنطوي عليه من قيمة بلاغية وجمالية، وهكذا يصير مفهوم الحمل على المعنى أداة تأويلية تكشف عن أبعاد المعنى الكامنة في التراكيب الموسومة بالشذوذ[2]

ويظهر أثر الحمل على المعنى عند ابن جني واهتمامه به في توجيهه في بعض القراءات، وقد أولاها اهتمامه في كتابه المحتسب، فمن تلك التوجيهات، توجيهه لقراءة الحسن " اهدنا صراطا مستقيما"، بحذف اللام من الصراط والمستقيم، وقد ذكر في هذه القراءة وجهين بلاغيين، هما: الوجه الأول: أن تنكير الصراط المستقيم فيه مزيد من التضرع والرجاء لله رب العالمين، لأن التعريف يعني الصراط المعروف الذي يطمح في الهداية إليه عبادك المستعينون على عبادتك بك، أما التنكير يعني صراط أي صراط؟ وأي قدر من هديك ياربنا إلى صراط مستقيم يكفينا، ولا نطمح في أكثر منه، والقليل منك لايقال له قليل. ويستشهد لهذا المعنى بما جاء في شعر الصادقين في محبتهم بما يتوسلون لمن يحبون بالقليل، ويذكر ما أنشده ابن الأعرابي:

وإني لأرضى منك ياليل... بالذي لو أبصره الواشي لقرت بلابله

بلا، وبأن لا أستطيع وبالمنى ... وبالوعد حتى يسأم الوعد سائله

وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضي ... أواخره لانلتقي وأوائله

[1]- الخصائص: ج2،ص274.

[2]- ينظر: البلاغة والأصول: 92.

ويعقب على هذا ويقول : إذا كان هذا في حق مخلوق مثله، فأحرى بالمجتهد أن يسأل خالقه عز وجل مقتصدا في سؤاله وضامنا من نفسه السمع والطاعة على ما يأمره به.

الوجه الثاني: التجريد؛ لأن كلمة اهدنا تتضمن الهداية إلى الصراط المستقيم ثم يأتي قوله تعالى: (صراطا مستقيما)، فهو تنكير في معنى التعريف، وضرب له مثالاً بقوله: لئن لقيت رسول الله لتلقينَّ رجلا متناهيا في الخير، ورسولا جامعا لسبل الفضل[1].

ونقف على تخريج ابن جني قراءة أخرى في قوله تعالى: (ونادوا يامالِ) بالترخيم، حيث يرى أن السر في الترخيم، ذلك بأنه لعظم ما هم عليهضعفت قواهم، وذلت أنفسهم، وصغر كلامهم؛ فكان الاختصار ضرورة في ندائهم[2].

وما تقدم من مفاهيم نحوية، يظهر ماتختزنه العلاقات النحوية من طاقة أسلوبية وبلاغية، وقد تنبه ابن جني إلى جملة من صور الاستخدام اللغوي النحوي التي لم يحفل بها علماء البلاغة، على الرغم مما تحتويه من طاقة بلاغية وأسلوبية تجعلها وثيقة الصلة بطبيعة الحقل البلاغي، وأن وعيه بالأسرار الجمالية للاستعمالات اللغوية النحوية، أشرف به على اعتبار اللغة نسقا تعبيريا جماليا في ذاته[3].

واهتمام ابن جني بقضية اللفظ والمعنى تبلور في أربعة فصول من كتابه الخصائص، ذلك بأن اللفظ والمعنى إطار عام كدَّ ابن جني فكره في تأصيلها واجتهد في خدمتها. هذه الفصول هي: تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني، والاشتقاق الأكبر، وتصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني، وإمساس الألفاظ أشباه المعاني.

وختاما" .. من خلال ما سبق في محاولة الوقوف على جهود ابن جني في قضية اللفظ والمعنى، يتبين بما لا يدعو مجالا للشك، بأن ابن جني أرسى مفاهيم البلاغة الحديثة، التي تدعو إلى أن البلاغة، بلاغة نص وليست بلاغة جملة، وأن نظرته للغة لم تكن نظرة جزئية

[1]- ينظر: مراجعات في أصول الدرس البلاغي، د. محمد أبو موسى،ص89-90.
[2]- ينظر : المحتسب،ج2،ص257.
[3]- ينظر: البلاغة والأصول: 105.

بل كانت نظرة شمولية للسياق كاملا، وذلك بالنظر إلى تركيبة اللفظة صوتيا وصرفيا وعلاقتها في التركيب مع بقية الألفاظ الأخرى، والمعنى الناتج من هذا السياق من خلال هذه العلاقات كما أنه تنبه لقضية مقتضى الحال أو سياق الحال، وهي مجموعة الظروف والملابسات التيأحاطت بالنص لحظة حدوثه. وهذا ثراء معرفي دقيق سابق يحسب لابن جني على أصحاب الدراسات الحديثة كفان دايك، وبالي وغيرهم من أصحاب النظريات الغربية.

وحقيقة مافي الأمر أن التفكير البلاغي العربي نما في أحضان النحو في صورته الأولى عندما كان موصولاً بالبحث في خصائص العربية، كما كان لنظر ابن جني في جملة من المقومات الصوتية والصرفية والتركيبية[1].

[1]- المصدر السابق: ص105.

المصادر والمراجع

1 . أثر النحاة في البحث البلاغي، د. عبدالقادر حسين، دار غريب، مصر – القاهرة.

2 . أسرار البلاغة، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: عبدالحميد هنداوي،ج1،دار الكتب العلمية، لبنان – بيروت،ط1422،1– 2001م.

3 . البلاغة والأصول، محمد مشبال،ج1،إفريقيا الشرق،2007م.

4 . التراث النقدي والبلاغي عند المعتزلة، د. وليد قصاب،ج1،دار الثقافة،قطر– الدوحة،1405هـ –1985م.

5 . الدلالة اللغوية عند العرب،د. عبدالكريم مجاهد، دار الضياء، عمان – الأردن.

6 . الخصائص، ابن جني،ج3، الهيئة المصرية للكتاب،ط4.

7 . الخصائص، لابن جني، تحقيق: محمد علي النجار،ج3،الهيئة العامة لقصور الثقافة.

8 . شرح صحيح البخاري، ابن بطال،تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم،ج10، مكتبة الرشد – السعودية، الرياض،ط2، 1423هـ –2003م.

9 . صحيح البخاري، البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر،ج9،دار طوق النجاة،ط1422،1هـ.

10 . الكتاب، سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون،ج4،مكتبة الخانجي، مصر– القاهرة،ط3، 1408 هـ – 1988 م.

11 . العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد،ج2،دار الجيل،ط5، 1401 هـ – 1981 م.

12 . المحتسب، ابن جني،ج2،وزارة الأوقاف،1420– 1990

13 . مراجعات في أصول الدرس البلاغي، د. ممحمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبه، مصر – القاهرة،ط2.

14 . المنصف، ابن جني،ج1، دار إحياء التراث القديم،ط1، 1373هـ – 1954م.